﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: 57 - 62]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من الوعيد والتَّهديد إلى إقامة الحُجَّة على العبيد

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة حالَ الضّالّين المكذِّبين وما يُجزَون به من العذاب يَومَ الدّينِ؛ ناسب أن تذكر الآيات بعدها أوجه الاستدلال على توحيد الرُّبوبيَّة المقتضي؛ لتوحيد الألوهيَّة وسلامة الاعتقاد في الله تعالى؛ تعقيبًا تفنيديًّا على إنكار المشركين، وسوقًا للأدلَّة القاطعة الَّتي تُزيل الشُّبهة، وتُؤكِّد أنَّ القادر على الخلق أوَّل مرَّة لا يعجز عن إعادة مثله، فهو من باب الانتقال من التَّهديد والوعيد إلى التَّقرير والبرهنة، بدءًا من النُّطفة، ثمَّ الموت، ثمَّ الزَّرع، ثمَّ الماء، ثمَّ النّار، وكلُّها أدلَّة من المحسوس المشاهد؛ لتقريب إمكان النَّشأة الثّانية وإلزام المكذِّبين بها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُمْنُونَ﴾: المَنَى: التَّقدير، يقال: مَنَى لك الماني، أي: قدَّر لك المقدِّر، ومنه: المَنا الَّذي يوزن به فيما قيل، والمَنيُّ للَّذي قدَّر به الحيوانات[1]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: 37]، ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النَّجم: 46]، والمني: النُّطفة[2]، وأصله المعجميُّ يدلُّ على صبِّ المنيِّ وقذفه في الرَّحِم، وأمنى الرَّجل ومنى، فالمراد بالآية ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾: أفَرَأيتُم ما تُلقونه من المنيِّ[3].

(1) الراغب، المفردات: 1/ 779.
(2) النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 7.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (مني).

2) ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾: (نشأ) أصلٌ يدلُّ في معناه المعجميِّ على ارتفاع في شيء وسموٍّ[1] والتَّكوين من حال إلى حال، والنَّشْءُ والنَّشأةُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، ويُطلَق كذلك على الإنشاء من العدم، و"ابتداء الخلق وكلُّ مَن ابتدأ خَلْق شيءٍ واخترَعه فقد أنشأه"[2].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

البرهان المحسوس على إمكان البعث من النَّشأة الأولى إلى النَّشأة الأخرى

وردت الآيات تعقيبًا على وصف حال الضّالّين المكذِّبين، الَّذين أصرّوا على إنكار البعث والنُّشور، فجاء هذا المقطع القرآنيُّ في صورة حجاج عقليٍّ رفيع، واستدلال برهانيٍّ قائم على المحسوسات، لإثبات إمكان النَّشأة الآخرة، بنقض دعوى استحالتها، عبر التَّذكير بما هو أقرُّ في النَّفس وأظهر في الحسِّ، وهو الخلق الأوَّل.

فقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ يمثِّل مفتتحًا برهانيًّا يقرِّر أنَّ خالقكم ابتداءً هو الله، ثمَّ ينتقل إلى تفصيل هذا البرهان بالحقيقة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، أي: أفتأمَّلتم ما تقذفونه من ماء النُّطفة في الأرحام[3]، ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وفي هذا إبطال لما يمكن أن يُتوهَّم من أنَّ النَّشأة أمر طبيعيٌّ تلقائيٌّ، فهو في الحقيقة خاضع لتقدير الخالق وتدبيره.

ثمَّ يأتي الانتقال من النَّشأة إلى نهايتها: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، نحن الَّذين رتَّبنا الموت على الأحياء، وفق نظام محكم، لا يسبقنا فيه أحد، ولا يعجزنا أمر، قال مقاتل: فمنكم من يموت كبيرًا، ومنكم من يموت صغيرًا، وشابًّا، وشيخًا[4]، ﴿وَمَا نَحْنُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نشأ).
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 137.
(4) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 222.

بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾، أي: لا يعجزنا أن نستبدلكم بخلق أمثالكم، أو أن نعيد خلقكم في صور أخرى، قد لا تدركونها بعقولكم القاصرة، لكنَّها داخلة في قدرتنا الشّاملة، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ونوجدكم إنشاءً جديدًا، وتكوينًا مغايرًا لما عهدتم من أنفسكم في الدُّنيا، في صورة لا تدركون كنهها الآن، ولا تملكون تصوُّرها بمداركم الحاضرة.

ويُختَم هذا السّياق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: إنَّكم تعلمون بالضَّرورة كيف خُلقتم أوَّل مرَّة، فالآيات تجري على نسق من الجدل الحيِّ؛ إذ تنقلك من مشهد العقاب والجزاء، إلى عرض الدَّليل العقليِّ المحسوس.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾:

الانتقال الخطابيُّ من العذاب إلى البرهان ومن وصف المآل إلى تفنيد المقال

فُصِل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، إمّا لأنَّه من تمام ما أمر بأن يقوله لهم، ويجوز أن يكون استئنافًا مستقلًّا، وموقعه استدلال وعلَّة لمضمون جملة: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ﴾؛ ولذلك لم تعطف الجملة[1]، أي: إمّا من باب كمال الاتِّصال على معنى قل لهم: كيت وكيت، وإمّا من باب كمال الانقطاع، مع وجود تناسبٍ انتقاليٍّ من ذكر الوعيد إلى ذكرِ حجاج الوعيد، مُراعًى في تغيُّر الغرض؛ إذ الغرض فيما سبق إنذاريٌّ تهديديٌّ، يُبيِّن مصير الضّالّين المكذِّبين يَومَ الدّينِ، وأمّا الغرض في الآيات التّالية؛ فهو إقامة الحُجَّة العقليَّة على من أنكر البعث، فأفاد هذا الانتقال تَحوُّلًا من وصف المآل إلى تفنيد المقال، وجاء التَّعبير بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ تقريرًا لمقدِّمة أولى لا تُنكر، يُبنى عليها البرهان

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 312.

التّالي، بأسلوب توبيخيٍّ: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، أي: فهلّا تُصدِّقون بالبعث؛ ما دمتم مقرّين بأصل الخلق؟.

فائدة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

تقوية الحكم للرَّدِّ على إنكارِ قدرةِ الله على البعث

قُدِّم ذِكرُ المسند إليه، وهو الضَّمير ﴿نَحْنُ﴾، على المسند الفعليِّ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾؛ لإفادة تقوية الحكم ردًّا على إحالتهم أن يكون الله قادرًا على إعادة خلقهم بعد فناء معظم أجسادهم، حين يكونون ترابًا وعظامًا، فهذا تذكير لهم بما ذهلوا عنه بأنَّ الله هو خلقهم أوَّل مرَّة، وهو الَّذي يعيد خلقهم ثاني مرَّة، فإنَّهم وإن كانوا يعلمون أنَّ الله خلقهم لما لم يجروا على موجب ذلك العلم بإحالتهم إعادة الخلق؛ نُزِّلوا منزلة من يشكُّ في أنَّ الله خلقهم، فالمقصود بتقوية الحكم الإفضاء إلى ما سيفرع عنه من قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾[1].

نكتة استعمال مفردة (الخلق):

إبداع النَّشأة الأولى وتمهيدٌ لإثبات البعث

استعمل النَّظم الكريم مفردة الخلق في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، دون غيرها من الألفاظ كـ (أنشأناكم) أو (جعلناكم) أو (صوَّرناكم)؛ لما ترجع إليه من تضمُّنها معاني الإيجاد التّامِّ على غير مثال سابق، والتَّقدير المحكم المتقن، والتَّصوير الكامل، ممّا يُناسب تمامًا مقام الاحتجاج على من يُنكر البعث والقدرة على الإعادة، وهو ما يُمهِّد للآية الَّتي تليها مباشرة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، فالخلق مدخل للحديث عن تقدير الحياة والموت والبعث، فتأتي أهمّيَّة ذكر مفردة (الخلق) كدليلٍ عقليٍّ على إمكان البعث، فالله الَّذي بدأ خلق الإنسان من نطفة قادر على إعادته بعد موته، فالتَّصديق بالخلق

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 312.

يوجب التَّصديق بالإعادة، ومن ثمَّ فإنَّ إنكار البعث مع الإقرار بالخلق تناقض عقليٌّ[1].

تعيين مرجع ضمير الخطاب في قوله: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾:

توجيه الخطاب إلى الضّالّين بعد الوعيد تقريرٌ بعد تقريع

مرجع ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ هم المخاطَبون في الآيات السّابقة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، أي: أولئك المنكرون للبعث والمعاندون للحقِّ، الَّذين وصفهم اللّه تعالى قبل ذلك بأنَّهم كانوا مترفين، مصرّين على الحنث العظيم، منكرين للبعث قائلين: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

فجاء الخطاب في ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ ليكون بمنزلة التَّعقيب على جحودهم، وتذكيرهم بما يقطع حُجَّتهم، أي: أنتم تنكرون البعث، ونحن قد خلقناكم ابتداءً من نطفة، أفلا تُصدِّقون بقدرتنا على إعادتكم؟ فهذا الخلق الأوَّل شاهد حاضر على إمكان الخلق الثّاني.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾:

تفريعُ الاحتجاجِ العقليّ على قاعدة أصل الخلق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ واقعة في سياق احتجاج عقليٍّ يراد به إلزام المخاطَبين بوجوب الإيمان بالبعث، بعد أن تقرَّر خلقهم الأوَّل بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، فجاءت الفاء لتربط هذا التَّقرير بما بعده على جهة التَّفريع البيانيِّ[2]، بمعنى: إذا كنتم تقرّون بأنَّ اللّه هو الَّذي خلقكم، فلمَ لا تصدِّقون أنَّه قادر على إعادتكم؟ فهي تفريع لإنكار عدم التَّصديق على أمرٍ قد ثبت لديهم، وهو الخلق.

فائدة (لولا) في الجملة:

(لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ من أدوات التَّحضيض

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 415.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 319.

والعتاب والتَّوبيخ، دخلت على فعلٍ مضارعٍ يُراد به طلبُ الإيمان والتَّصديق، "إمّا بالخلق؛ لأنَّهم وإن كانوا مصدِّقين به، إلّا أنَّهم لمَّا كان مذهبهم خلافَ ما يقتضيه التَّصديق، فكأنَّهم مكذِّبون به، وإمّا بالبعث؛ لأنَّ مَن خلق أوَّلًا لم يمتنع عليه أن يُخلَق ثانيًا"[1]، فالتَّقدير البيانيُّ: (فلولا إذ قد علمتم أنَّنا خَلَقناكُم، وآتيناكم الحياة، تُصَدِّقونَ بذلك؟).

تحضيضُ المخاطَبين على الإيمان بالتَّوبيخ العقليّ والتَّحريض الإيمانيّ

بلاغة استعمال مفردة ﴿تُصَدِّقُونَ﴾:

ناسب اختيارُ لفظ ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بدلًا من (تُؤمِنون) مقامَ الاحتجاج العقليِّ، وأكَّد على مقصدٍ مخصوص من مقاصد السّورة، وهو الاحتجاج على منكري البعث في سياقٍ استدلاليٍّ جدليٍّ، لا في معرض بيان أصل الإيمان، فالتَّصديق أخصُّ من الإيمان؛ إذ يُراد به تسليم الذِّهن وإذعان العقل بصدق الخبر، بعد قيام الحُجَّة عليه، بخلاف (الإيمان) الَّذي يشمل التَّصديق القلبيَّ والانقياد العمليَّ.

التَّصديقُ أوَّلُ منازل الإيمان واكتمال اليقين

بلاغة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تُصَدِّقُونَ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ دون: (صدَّقتم)؛ للدَّلالةِ على الحال والاستمرار والتَّجدُّد[2]، كما يشي بالتَّقريع والتَّحفيز على تغيير الموقف في الزَّمن الحاضر، لا مجرَّد حكاية عن موقف ماضٍ، ففي قوله: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ إيحاءٌ بأنَّ موطن الإنكار والتَّقصير ما يزال قائمًا، والفرصة ما تزال مهيَّأة لتدارك الأمر، ولذلك يوبِّخهم على استمرارهم في الجحود بالرَّغم من وضوح البرهان، كأنَّه يقول لهم: ما بالكم تُعرضون عن التَّصديق في الحال الحاضر؟.

المضارع في موضع التَّوبيخ استدعاء الحاضر واستمرار الحُجَّة

والتَّعبير بالفعل المضارع يُبقي سامعَ الآيةِ حاضرَ الذِّهن، منتبهًا إلى أنَّ القضيَّة ليست تاريخيَّة منقطعة، بل ممتدَّة في كلِّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 463.
(2) المبرّد، المقتضب: 2/ 2، والزّمخشريّ، المفصّل: 2/ 137.

آنٍ، وتصلح لكلِّ مخاطَب، ولهذا تجد أنَّ آيات الحجج العقليَّة كثيرًا ما تُصاغ بالمضارع لما فيه من تصوير مباشر للحدث، وإبراز لقربه ومسِّه للواقع النَّفسيِّ والذِّهنيِّ.

غرض الاستفهام في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

تحفيزُ المخاطَبين على التَّعقُّل بتأمُّل خلقهم ومعرفةِ سرِّ بقائهم واستمرارهم

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ يُراد به التَّحفيز على التَّأمُّل والتَّبكيت العقليِّ، وهو جارٍ على نسق نظائره في السّورة، من مثل قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾... ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾... ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، وهو بمعنى (أخبروني)[1]، وغرضه إلفاتُ نظرٍ وتحريكُ بصيرة.

وبهذا، تتَّضح بلاغة الاستفهام في أنَّه يُقحم السّامع في تأمُّل مباشر، يوقظه من غفلته، ويدفعه إلى مواجهة الحقيقة دون وسائط: أنَّ الخلق ابتداءً وانتهاءً هو من اللّه وحده، وأنَّ الإنسان، وهو يباشر الأسباب، لا يملك من حقيقة الخلق شيئًا.

نوع الفاء ودلالتها في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

نقلُ الخطاب من مقام التَّوبيخ إلى مقام إقامة الدَّليل العقليّ المحسوس

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هي فاء التَّفريع، وقد جاءت بعد قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، وهي تفيد التَّفريع الاستنتاجيَّ، أي: إنَّها ربطت بين التَّوبيخ السّابق وبين البرهان الَّذي يُراد إيراده في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، "أي: خلقناكم الخلق الَّذي لم تروه، ولكنَّكم توقنون بأنّا خلقناكم، فتدبَّروا في خلق النَّسل؛ لتعلموا أنَّ إعادة الخلق تشبه ابتداء الخلق"[2].

فالفاء هنا بمنزلة قولك: (إذا لم تُصدِّقوا، فانظروا إلى هذه الحقيقة الَّتي تدلُّكم على ما يجب عليكم أن تُصدِّقوا به)، فهي فاء ترتيب وتعقيب ذهنيٍّ، تُفصح عن أنَّ ما بعدها متفرِّعٌ عمّا قبلها،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 312.

من باب التَّعليل أو التَّفريع أو التَّسبُّب العقليِّ، ودلالتها البلاغيَّة: أنَّها تنقل الخطاب من التَّوبيخ واللَّوم على التَّكذيب، إلى مقام إقامة الدَّليل العقليِّ المحسوس.

تعيين المعطوف عليه في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

العطف على مقدَّر بعد همزة الاستفهام أو على مذكورٍ قبلها

المعطوف عليه بالفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هو ما تقرَّر في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، فجملة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ معطوفة على محذوفٍ مقدَّر دلَّ عليها السّياق، وتقديرها: (أعلمتم، فرأيتم ما تمنون)، فتكون ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ تفريعًا على ذلك التَّقدير، أو قيل: إنَّها معطوفة على قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾، أي: نحن خلقناكم، أفرأيتم ما تمنون؟ والفرق بين الأمرين، أن تكون الفاء عاطفة على مقدَّر بعد همزة الاستفهام وهذا مذهبٌ عريق للزَّمخشريِّ، والآخر أن تكون عاطفة على ما قبل همزة الاستفهام، وهو مقتضى مذهب سيبويه.

نوع الرُّؤية في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ ودلالتها:

رؤية اعتبار لا رؤية إبصار تقودُ إلى تحقيق الحقِّ في النُّفوس

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هي رؤية عقليَّة قلبيَّة، لا بصريَّة حسّيَّة؛ لأنَّ المقصود منها التَّأمُّل والتَّفكُّر في حقيقة النَّشأة الأولى للإنسان من المني[1]، والمقصود هنا هو تحريك العقل لإدراك دلائل البعث من خلال النَّظر العقليِّ في أصل الخلق، كما أنَّ ما يُمنى لا يُرى عادة في حال خروجه، ممّا يدلُّ على أنَّ الرُّؤية هنا رؤية اعتبار وتفكُّر، لا رؤية عين، وهذا المعنى متَّسق مع أسلوب القرآن في الاستدلال العقليِّ؛ إذ يُؤتى بمثل هذا الاستفهام التَّنبيهيِّ؛ ليدفع المخاطَب إلى التَّفكير في أمر قريب منه، معلوم لديه، ولكنَّه غافل عن دلالته الكبرى، فينبِّهه السّياق إلى أنَّ الخلق من نطفة لا يملكها الإنسان، ولا يعرف حقيقتها دليلٌ على قدرة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 313.

اللّه تعالى على البعث بعد الموت؛ إذ مَن خلق من ضعف، قادرٌ على الإعادة بعد الفناء.

نوع ﴿مَّا﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾:

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، أي: (أفَرَأيتُم الشَّيءَ الَّذي تُمنونه؟) والمقصود بـ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾: ما تُلقونه من المَنيِّ في أرحام النِّساء، ودلَّت ﴿مَّا﴾ على العموم؛ لتشمل أصلَ المنيِّ ذاته وما فيه من الخلق الكامن في أصله، أي: إنَّ المولى ﷻ يستوقف الإنسان عند تلك النُّطفة الصَّغيرة المهينة؛ ليجعله يتأمَّل عجزه عن خلقها أو توجيه مصيرها، وفيها إشعار بعمق الجهل البشريِّ بحقيقة هذا المنيِّ، كأنَّه شيءٌ غير معلوم في ذاته، يُشار إليه بما يُستغلَق على الفهم، فتكون ﴿مَّا﴾ أبلغ في التَّجهيل والإبهام والتَّغريب، ممّا يثير العقل للتَّفكُّر.

المنيُّ المعروف أثره معدوم القدرة عليه ومدفوع التَّشبه به

براعة اختيار مفردة ﴿تُمْنُونَ﴾:

اختار النَّظم الكريم مفردة ﴿تُمْنُونَ﴾ الدّالَّة على التَّكاثر دون (تلدون) أو (تتكاثرون) أو (تُنجبون)؛ وذلك أنَّ لفظ ﴿تُمْنُونَ﴾ مأخوذٌ من (الإمناء)، أي: إلقاء المنيِّ، فكان التَّعبير به أبلغ في استحضار أصل الخلق الأوَّل، ونقطة الابتداء، لا ما يكون بعده من الولادة أو الميلاد، فالمقصود ليس الحديث عن الولد في حال وجوده، بل عن مبدأ وجوده من ذلك السّائل المهين الَّذي لا حيلة فيه للعبد، والَّذي هو أدنى ما يكون من حيث القدرة والعظمة والكرامة، ومنه يُبدَأ خلق الإنسان.

المنيُّ كلمةٌ ناطقةٌ بأصل الإنسانِ واستمراره وإعادته مع الإشعار بالمهانة

واختيار لفظ ﴿تُمْنُونَ﴾ يُلفت السّامع إلى عجائب القدرة الإلهيَّة الَّتي تبني الخلق على مادَّةٍ هي في نظر النّاس دون المقام، مهينة في ذاتها، فكيف بها إذا كانت موضع عناية ربّانيَّة تصنع منها إنسانًا كاملًا؟ فالتَّعبير هنا في غاية الدِّقَّة؛ لأنَّه لا يتوجَّه إلى تمام

الخلق، بل إلى لحظة البدء، واستمرار الخلق، وهو ما يناسب مقام التَّذكير بالإعادة والبعث، فإنَّ القادر على الإبداع من المنيِّ؛ قادرٌ على الإعادة من العظام والتُّراب.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تُمْنُونَ﴾:

أوسع الأفعال امتدادًا في الحدث البشريِّ الكلّيّ هو فعل الإمناء

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾؛ لبيان التَّجدُّد والاستمرار المستقبليِّ إلى يوم الدّين، فالإمناء حدثٌ بشريٌّ ممتدٌّ من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها، فهو حدث واقعيٌّ متكرِّر متجدِّد مستمرٌّ، شاهد على قدرة الله في كلِّ آنٍ، وعلى استمرار الخلق بأمره وإرادته، فليست حياة النّاس ببَدْءٍ قد انقضى، بل ببدء يتجدَّد، وهذا أدعى لأن يستيقظ فيهم التَّذكير بالبعث؛ لأنَّه مبنيٌّ على نظيرٍ يَرَونه كلَّ يوم.

بلاغة الإسناد المجازيِّ في جملة ﴿تُمْنُونَ﴾:

تصوير الفعل الامتنانيّ توطئةٌ لنقض دعوى القدرة عليه

جاء إسناد فعل الإمناء إلى المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ إسنادًا مجازيًّا، فهذا الفعل من حيث الحقيقة ليس من صنعهم، ولا قدرة لهم عليه، وإنَّما هو بتقدير الله وتدبيره، فالمنيُّ نعمةٌ إلهيَّة محضة، والمنيُّ إنَّما يُخرَج بأمر الله، ويحمل في قطراته أعقد أسرار الحياة، الَّتي لا يعلمها الإنسان، ولا يُدرك كنهها، ولا يملك أن يُبدلها، أو يُحسن توجيهها؛ فالإسناد مجاز عقليٌّ؛ إذ أُسنِد الفعل إلى سبب من أسبابه، لا إلى الفاعل الحقيقيِّ.

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾؛ للتَّقرير بتعيين خالق الجنين من النُّطفة؛ إذ لا يسعهم إلّا أن يقرّوا بأنَّ الله خالق النَّسل من النُّطفة، وذلك يستلزم قدرته على ما هو من نوع إعادة الخلق[1].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 313.

جملة ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ بين الاسميَّة والفعليَّة:

سـؤال الخلق ثابت متجدِّدٌ في النَّفس البشريَّة

"(أنتُم) مبتدأ، وجملة ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ خبر، ويجوز إعراب (أنتم) فاعلًا لفعل مقدَّر، أي: أتخلقونه أنتم، فلمّا حُذِف الفعل؛ لدلالة ما بعده عليه؛ انفصل الضَّمير، وهو من باب الاشتغال، ولعلَّه من جهة القواعد أمكن لأجل أداة الاستفهام"[1]، والجملة على تقدير الاسميَّة والفعليَّة تحمل بلاغةً عالية، فالاسميَّة تُشير إلى دوام الاستفهام التَّقريريِّ في النَّفس المنكرة، إلى أن تؤوب إلى الحقِّ، فتذعن، وتؤمن، والفعليَّة تُشير إلى تجدُّد الاستفهام في خطاب النَّفس البشريَّة تجدُّدًا يُنتظر من ورائه رواء الإيمان في القلوب، فعلى الاحتمالين فالنُّكتة حاضرةٌ متجلّية في آثارها الإيمانيَّة، وفي سياقها الحجاجيِّ.

نكتة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

تقريرُ المنكرين في البدهيّات محرجٌ لعقولهم أمام البريّات

قُدِّم ذكر المسندِ إليه على المسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ "لإفادة التَّقوّي؛ لأنَّهم لمّا نُزِّلوا منزلة من يزعم ذلك كما علمتَ؛ صيغت جملة نفيه بصيغة دالَّة على زعمهم، تُمكِّن التَّصرُّف في تكوين النَّسل"[2]، ويُلحَظ في التَّقديم إيماءٌ إلى التَّهكُّم بالمخاطَبين المنكرين، وأنَّ خلقَ المنيِّ لا يكون إلّا لله وحده، فأفادت الجملة في المآل دلالة اختصاص الخلق بالخالق.

نوع ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها البيانيَّة:

احتمال أن تكون (أم) منقطعة ومتَّصلة

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ حرف عطف، تحتمل أن تكون منقطعةً؛ لأنَّ بعدها جملة، والمنقطعة تُقدَّر بـ(بل) وهمزة الاستفهام، فيكون الكلام مشتملًا على استفهامين، الأوَّل: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، وجوابه: (لا)، والثّاني: مأخوذ من ﴿أَمۡ﴾، أي: بل نحن

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 441.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.

الخالقون وجوابه: (نعم)، أو لأنَّ الاستفهام ليس بحقيقيٍّ، فليس من غرضه طلب تعيين الفاعل، ويكون الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، والمعنى: أتظنّون أنفسكم خالقين النَّسمَة ممّا تمنون؟.

وتحتمل أن تكون ﴿أَمۡ﴾ متَّصلة، فهي معادلة، ويُؤيِّد هذا الوجه أنَّ الكلام يُؤوَّل إلى أيِّ الأمرين واقع، والجملة بعدها في تأويل المفرد، كما أنَّ ما بعدها معطوف؛ لأنَّ الغالب ألّا يُذكَر له خبر اكتفاءً بدلالة خبر المعطوف عليه على الخبر المحذوف، وههنا أعيد الخبر في قوله: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ زيادة في تقرير إسناد الخلق إلى الله في المعنى، وللإيفاء بالفاصلة وامتداد نفس الوقف[1].

أسلوب القصر ودلالته:

تقديم النَّفي على الإثبات قصر برهانيٌّ مقوٍّ للأدلَّة ودامغٌ للبراهين

أفاد الاستفهام ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ تقريرهم على أنَّهم لا يخلقون، فثبت بذلك نفي الخلق عن المخاطَبين، ولمّا أثبت فيما بعد ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ فُهِم من مجموع ذلك قصر الخلق على الله تعالى[2]، كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ قصرًا إضافيًّا بتعريف الجزأين المبتدأ ﴿نَحۡنُ﴾، والخبر ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ بقصر الخلق على الله وحده، ونفيه عمَّن سواه نفيًا قاطعًا، وبلاغة هذا الأسلوب ظاهرة في سياق الجدال الحجاجيِّ لمنكري البعث؛ إذ يُنتزَع الإقرار من الخصم بتسليم أوَّل مراحل الوجود: الخلق من ماء مهين، ثمَّ يُلزم بنتيجته: أنَّ مَن بدأ الخلق هو وحده القادر على إعادته.

غرض تقديم المسند إليه على المسند:

الخالقيَّة خصوصيَّة ربّانيَّة تُجابه المنكِرَ بالأدلَّة العيانيَّة

قُدِّم ذكر الضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾ المسند إليه على المسند ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ لإفادة مزيد من التَّخصيص والتَّوكيد، فهو قصر بالجملة والتَّقديم معًا، وهذا القصر يجيء في سياق تقرير الحقيقة بعد إنكارها،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 441.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.

ففيه ضرب من المجابهة البرهانيَّة، يقيمها القرآن بأقوى الأساليب الَّتي تُرغم الخصم على التَّسليم: (أنتم لا تخلقون، ونحن وحدنا الخالقون)، فكما لا قدرة لكم على بدء الخلق، فلا قدرة لكم على بعثٍ بعد الموت، وهو موطن الإنكار الَّذي جوبهوا به، فالمعنى البيانيُّ المحقَّق هنا: ليس الخالق لهذا المنيِّ وما يتبعه من أطوار الخلق سوانا، فنحن الَّذين ننفرد بهذا الوصف، وهذا الفعل، لا أنتم ولا غيركم، فدعوا التَّكذيب، وتفكَّروا.

نكتة ذكر ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ وعدم الاكتفاء بما قبل ﴿أَمۡ﴾:

ذكر لفظ ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ بعد ﴿أَمۡ نَحۡنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ دون الاكتفاء بأن يُقال: ﴿أَمۡ نَحۡنُ﴾؛ وذلك لأنَّ الإتيان باسم الفاعل ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ أفاد توكيد المعنى واستقراره في الذِّهن، والعدول إلى اسم الفاعل أفاد قصرًا بلاغيًّا بوساطة تعريف الطَّرفين، ولمّا ذُكِر في صدر الآية: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، جاء بعدها: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، لا بمجرَّد الإسناد الفعليِّ بل بالصِّفة اللّازمة ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ ليقع التَّباين بيانيًّا بين دعوى الخلق من جهة الإنسان، وهي دعوى ظاهريَّة شكليَّة لا حقيقة لها، وبين الخلق الحقيقيِّ المتقن الكامل، الَّذي لا يكون إلّا لله تعالى.

إبراز المعاني الكبرى بالألفاظ الحاصرة والمؤكّدة أرسخ من الإيماء

بلاغة فنِّ الاحتباك:

في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ احتباك؛ إذ "ذكر أوَّلًا (تخلقون) دليلًا على حذف مثله له سبحانه ثانيًا، وذكر الاسم ثانيًا دليلًا على حذف مثله لهم أوَّلًا، وسرُّ ذلك أنَّه ذكر ما هو الأوفق لأعمالهم ممّا يدلُّ على وقت التَّجدُّد، ولو وقتًا ما، وما هو الأولى بصفاته سبحانه ممّا يدلُّ على الثَّبات والدَّوام"[1].

الاحتباك كاشفٌ عن تقابل لفظيٍّ مغاير وحذف مثيله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 416.

علَّة فصل جملة: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا﴾:

فُصل قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ مستقلٌّ، فقد شرعت الجملة ببيان أمر الموت بعد ذكر خلق النّاس، وهو فصل مقصود بيانيًّا، وله نكتة بلاغيَّة عميقة تتجلَّى في توجيه التَّركيز والانتباه إلى مضمون هذه الجملة المستقلَّة، لتوكيد مضمونها وتثبيته في الذِّهن، فإنَّ تقرير أنَّ الموت مقدَّر، وليس طارئًا ولا عشوائيًّا هو قضية مستقلَّة في ذاتها تستدعي توكيدًا خاصًّا، فجاءت الجملة منفصلة؛ لتدلَّ على أنَّ اللّه وحده هو المتصرِّف في أمر الحياة والموت دون أن يكون ذلك ملحقًا بالخلق فقط، بل هو قدر إلهيٌّ مستقلٌّ، وفي ذلك توخٍّ للتَّفخيم والإجلال؛ إذ إنَّ الفصل يحمل وظيفة الفصل التَّعظيميِّ؛ لتكون الجملة ذات وقع خاصٍّ في نفس السّامع لما تحويه من تقرير أمر جلل هو الموت الَّذي يقع بتقدير محكم.

استئناف المعاني المترابطة مزيَّة النَّظم الحكيم وبلاغة الرَّبط المتين

نكتة تقديم المسند إليه على المسند في قوله: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا﴾:

قُدِّم المسندُ إليه على المسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾؛ "لإفادة تقوّي الحكم وتحقيقه، والتَّحقيق راجع إلى ما اشتمل عليه التَّركيب من فعل ﴿قَدَّرۡنَا﴾ وظرف ﴿بَيۡنَكُمُ﴾ في دلالتهما على ما في خلق الموت من الحكمة الَّتي أشرنا إليها"[1]؛ إذ جاءت في مقام تقرير الحقائق العليا الَّتي تُبطل مزاعم المكذِّبين بالبعث والنَّشأة الثّانية، فجاء هذا التَّقديم بأسلوبٍ قَصريٍّ، يُفيد الحصر والتَّوكيد، فيُفهَم منه المعنى: نحن لا غيرنا قدَّرنا الموت بينكم.

قصر تقدير الآجال على الخبير الحكيم توطئةٌ لميقات الحليم العليم

بلاغة الإطناب في قوله: ﴿قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾:

آثر النَّظم الكريم الإطناب على الإيجاز، في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾، فلم يقل: (نُميتُكم)، ففي لفظ ﴿قَدَّرۡنَا﴾ إشعارٌ بالتَّقدير المسبَق، والحكمة المتقنة، والتَّدبير المحيط، لا الإيقاع

تقديرُ الموتِ تقسيم الآجال وتوزيع الأعمار بقدرٍ عائدٍ إلى الخبير الحكيم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.

العشوائيِّ للموت، كما قد يتوهَّم من يرى الموت حادثًا بلا نظام، فالموت عند الله ليس مجرَّد إماتة تحصل، بل هو مقدَّر بميزان محكم، وفي أوقات مضبوطة، وعلى كيفيَّة مخصوصة، وهذا المعنى لا تُفيده لفظة (نميتكم) المجرَّدة عن دلالة التَّقدير، فالموت "مجعول على تقدير معلوم مراد، مع ما في مادَّة ﴿قَدَّرْنَا﴾ من التَّذكير بالعلم والقدرة والإرادة؛ لتتوجَّه أنظار العقول إلى ما في طيِّ ذلك من دقائق، وهي كثيرة، وخاصَّة في تقدير موت الإنسان الَّذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة؛ إن أخذ لها أسبابها"[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

القراءات المتواترة تـنـوُّعٌ لـفـظـيٌّ وتوافق دلاليٌّ

اختلف القرّاء في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، فقَرَأ ابن كثير (قَدَرنا) بالتَّخفيف، وقَرَأ الباقونَ بالتَّشديد ﴿قَدَّرْنَا﴾ وهما لُغَتانِ قدرْتُ وقدَّرت[2]، "وهما بمعنى واحد، فالتَّشديد مصدره التَّقدير، والتَّخفيف مصدره القَدر"[3].

براعة ذكر الظَّرف ﴿بَيْنَكُمُ﴾:

الموت قسمةٌ بين البشر لا يفلت منها امـرأةٌ أو ذكر

جاء التَّعبير بالظَّرف في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾؛ للدَّلالة على التَّوزيع المقصود والمنتظم للموت في النّاس، فليس هو وقوعًا عشوائيًّا، بل هو تفريق، وتقدير موزَّع في بني آدم بحسب حكمة إلهيَّة، فيقع على بعضهم دون بعض في أوقات مختلفة وأعمار متباينة، فالموت "يأتي على آحادهم تداولًا وتناوبًا، فلا يفلت واحد منهم، ولا يتعيَّن لحلوله صنف ولا عمر، فآذن ظرف (بين) بأنَّ الموت كالشَّيء الموضوع للتَّوزيع لا يدري أحد متى يصيبه قسطه منه، فالنّاس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم لا يدري أحد

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.
(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 367، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 383.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 315.

متى يُنادى عليه ليأخذ قسمه، أو متى يطير إليه قِطُّه، ولكنَّه يوقن بأنَّه نائله لا محالة"[1].

فالتَّعبير بـ﴿بَيْنَكُمُ﴾ أبلغ من (لكم) أو (عليكم)؛ لأنَّه يصوِّر الموت، وكأنَّه يتحرَّك داخل الجماعة البشريَّة، واقعًا فيهم ومختلطًا بهم، لا يأتي من خارجهم، ويُفيد شمول التَّقدير لجميع النّاس دون استثناء، كما يحمل إشارة إلى استمرار هذا التَّقدير في كلِّ جيل وتعاقب، وفيه معنى الاحتجاج بانتظام وقوع الموت بين النّاس على صحَّة البعث؛ إذ من قدَّر ذلك بتلك الدِّقَّة، فهو أقدر على الإعادة، وقد جاء هذا التَّعبير موافقًا لمنهج السّورة في إثبات البعث من خلال حقائق واقعة محسوسة تقرُّ بها العقول والعيون.

بلاغة الاستعارة المكنيَّة:

الموتُ حاضرٌ بين النّاسِ ينتظر وقتَ قطع الأنفاسِ

بذكر الظَّرف ﴿بَيْنَكُمُ﴾ كان في قوله: ﴿بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ "استعارة مكنيَّة؛ إذ شُبِّه الموت بمقسوم، ورُمِز إلى المشبَّه به بكلمة ﴿بَيْنَكُمُ﴾ الشّائع استعمالها في القسمة، قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ [القمر: 28]، وفي هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للنّاس، إمّا في الدُّنيا لئلّا تضيق بهم الأرض والأرزاق، وإمّا في الآخرة؛ فللجزاء الوفاق"[2]، وفي هذا التَّصوير البلاغيِّ إشارة ضمنيَّة إلى أنَّ الموت حقٌّ جارٍ بنظام، وليس فناءً عبثيًّا، ممّا يُقوّي حُجَّة البعث الَّتي تسوقها السّورة، ويجعل من التَّأمُّل في هذه النِّعمة الإلهيَّة مدخلًا إلى الإيمان بالخالق المدبِّر، القادر على النَّشأة الثّانية.

بلاغةُ العدولِ عن الفاء إلى الواو ودلالتها البيانيَّة:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ "نتيجةٌ لما سبق من الاستدلال

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 315.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314.

على أنَّ اللّه قادرٌ على الإحياء بعد الموت، فكان مقتضى الظّاهر أن يعطف بفاء التَّفريع، ويترك عطفه، فعدل عن الأمرين، وعطف بالواو عطف الجمل فيكون جملة مستقلَّة مقصودًا لذاته؛ لأنَّ مضمونه يفيد النَّتيجة، ويفيد تعليمًا اعتقاديًّا، فيحصل الإعلام به تصريحًا وتعريضًا، فالصَّريح منه التَّذكير بتمام قدرة اللّه تعالى، وأنَّه لا يغلبه غالب، ولا تضيق قدرته عن شيء، وأنَّه يُبدِّلهم خلقًا آخر في البعث مماثلًا لخلقهم في الدُّنيا، ويفيد تعريضًا بالتَّهديد باستئصالهم وتعويضهم بأُمَّة أخرى، كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: 19 - 20]، ولو جيء بالفاء؛ لضاقت دلالة الكلام عن المعنيين الآخرين"[1].

تعليمُ الخلقِ القدرةَ المطلقة باستقلال الجمل المترابطة

نكتة استعمال أداة النَّفي (ما):

آثر النَّظم الكريم استعمال أداة النَّفي (ما)، في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بدلًا من (لسنا بمسبوقين)؛ ليُضفي على الجملة مسحة من القوَّة والصَّرامة، فهي آكد من (ليس)[2]، وفيها معنى التَّوكيد[3]، وهي مع الجملة الاسميَّة تُفيد الاستغراق والثُّبوت، أي: إنَّ انتفاء المسبوقيَّة عن اللّه تعالى أمر راسخ دائم لا يتبدَّل، فهذا نصٌّ في الرُّسوخ والثَّبات.

توكيد المعاني وتقويتها مسلكُ القرآن في السّياق الحجاجيّ

نكتة تقديم المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، جاء تقديم المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المسند ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لإفادةِ القصر، أي: نحن وحدنا لا يسبقنا أحد، ولا يكون ذلك لغيرنا، وهذا ضرب من أسلوب القصر العربيِّ المعروف بتقديم ما حقُّه التَّأخير، وهو أسلوبٌ يُستعمَل

الخلقُ كلُّه مسبوقٌ والحقُّ وحدَه سابقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 316.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 460.
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 176.

للتَّخصيص أو للتَّوكيد أو للرَّدِّ على دعوى باطلة، وهنا فيه ردٌّ صريح على شبهة الكُفّار في إنكارهم البعث وقدرة الله على الإعادة.

ثمَّ إنَّ في تقديم ﴿نَحْنُ﴾ تقوية للضَّمير، وتوكيدًا على عظمة الفاعل الَّذي هو الله جلَّ شأنه؛ إذ يحمل هذا التَّقديم معنى الهيمنة والاقتدار، كأنَّما قيل: (نحن المتفرِّدون المدبِّرون، ونحن القادرون على الإعادة كما ابتدأنا أوَّل مرَّة، وليس ثَمَّة من يغلبنا، أو يتقدَّمنا).

نوع الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لتوكيد النَّفي الدّاخل على ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾[1]، لتفيد تقوية المعنى وتثبيته في النَّفس، فجاءت؛ لتُعزِّز دلالة النَّفي من جهة، وتمنح الجملة بعدًا من الجزم واليقين من جهة أخرى، وقد استُعمِلت الباء؛ لما في هذه البنية من استبعاد أن يُسبَق الله تعالى، أو يُغلَب على أمره، فهي تفيد الامتناع والاستحالة معًا، وتوحي بكمال القدرة الإلهيَّة ونفاذ إرادته في الخلق والموت والإعادة، وتتناسب مع مقام الجلال الَّذي يسوق فيه الله الحجج على البعث والقدرة، كما أنَّ التَّعبير بها ينسجم مع نغمة السّورة وأسلوب التَّحدّي فيها، فهي أبلغ وأوقع في النَّفس من النَّفي المجرَّد.

توكيد عجز البشر وتثبيت معنى الاستحالة

بلاغة استعمال مفردة السَّبق دون الغلبة:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، "أي: على أن نذهبكم، ونأتي مكانكم أشباهكم من الخلق، فالسَّبق مجازٌ عن الغلبة استعارة تصريحيَّة أو مجاز مرسل عن لازمه"[2]، فالتَّعبير بلفظ السَّبق دون الغلبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، يجيء على طريقة القرآن في الدِّقَّة البلاغيَّة؛ إذ السَّبق أخصُّ وأدقُّ من الغلبة؛ لأنَّ السَّبق يدلُّ على فوات الفاعل إلى الشَّيء قبل غيره، أو قبل أن يتمكَّن

نفي السَّبق أبلغ من نفي الغلبة، فإذا تعذَّر السَّبق؛ فمن باب أولى الغلبة

(1) الحمصيّ، حاشية التّصريح: 1/ 156.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 147.

غيره من منعه، وهو أن يفوته من يريد منعه من فعل شيء، فإذا نُفي السَّبق؛ دلَّ ذلك على أنَّ الله تعالى لا يُفوَّت عليه شيء، ولا يسبقه أحد إلى أمر هو يريده، ولا يقدر أحد أن يمنعه من إنفاذ ما شاء، لا بتقدُّم عليه، ولا بمبادرة قبله، ولا بقطع عليه طريق فعله، ومن ثمَّ فإنَّ نفي السَّبق أبلغ من مجرَّد نفي الغلبة؛ لأنَّ الغلبة قد تكون بعد نزاع، أمّا نفي السَّبق؛ فيدلُّ على الاستئثار بالفعل من أصله، ويقطع احتمال المعارضة أو الممانعة من جذورها.

غرض التَّعبير بقوله: ﴿أَن نُّبَدِّلَ﴾:

بين المصدر والفعل سرُّ التَّعبير بالفعل في مقام التَّحذير والقدرة

جاء التَّعبير بالفعل المضارع المنسبك مع ﴿أَن﴾، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾؛ لما في الفعل من دلالة على التَّجدُّد والحدوث الزَّمنيِّ والفعليَّة المتحرِّكة، ممّا يُناسب السّياق البلاغيَّ الذي يُراد به التهديد والتحذير والتوكيد على القدرة الإلهية الفاعلة والمتجدِّدة، لا سيَّما في مقام الرَّدِّ على المكذِّبين بالبعث، وفي قوله: ﴿أَن نُّبَدِّلَ﴾ إشعار بالفعل من جهة القصد والتَّوجُّه، بينما المصدر (تبديل) لا يشعر بالفعل بقدر ما يشعر بحقيقته الذِّهنيَّة، وكأنَّما هو وصف للفعل لا فعله، وهذا ما يُضعِف من إيحاء التَّهديد.

بلاغة التَّعبير بلفظ: ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾:

الإيجاز المهيمن في الاقتصار على المذكور دون ذكر البدل في سياق التَّهديد

﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ جمع (مِثْل) بكسر الميم وسكون المُثَلَّثة، وهو النَّظير[1]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾، أي: على أن نبدِّل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق، وعلى أن (ننشئكم) في خلق لا تعلمونها، وما عهدتم بمثلها، يعني: إنَّا نقدر على الأمرين جميعًا: على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 463، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 317.

جمع مثل، أي: على أن نبدِّل، ونُغيِّر صفاتكم الَّتي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها[1].

وآثر النَّظم الكريم التَّعبير بقوله: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ دون أن يقول مثلًا: (نُبَدِّلَكُم بأمثالِكُم) أو (نُبَدِّلَ أمثالًا مِنكُم)؛ لجمعِ الاحتمالين المذكورين آنفًا، أي: تبديل النّاس أو تبديل الصِّفات، وللإيماءِ إلى أنَّ المراد ليس مجرَّد الإبدال بمثيل أو بديل، بل التَّنبيه على أنَّ أمثالهم - وهم بشر أيضًا - يمكن إيجادهم وإنشاؤهم على نسقهم أو على هيئة تزيد عليهم، دون الحاجة إلى بيان مَن يُبدَّل بهم، كأنَّ القدرة قادرة على أن تطرحهم، وتأتي بغيرهم دون تفصيل، ما دام أولئك ﴿أَمْثَلَكُمْ﴾، وهنا تحقير خفيٌّ وسلب لخصوصيَّتهم، وأنَّ الله لا يعجزه أن يخلق بشرًا يُماثلونهم في الخِلقة، أو يزيدون، فأنتم لستم شيئًا استثنائيًّا.

بلاغة العطف بالواو في قوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾:

من التَّبديل إلى الإنشاء تصعيد الوعيد في بناء قرآنيٍّ محكم

﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ عطف على ﴿نُّبَدِّلَ﴾، أي: ما نحن بمغلوبين على إنشائكم، وهذا العطف يحتمل أن يكون عطفَ مغايرٍ بالذّات، فيكون إنشاؤهم شيئًا آخر غير تبديل أمثالهم، أي: نحن قادرون على الأمرين جميعًا، فتبديل أمثالهم خلْقُ أجساد أخرى تودَع فيها الأرواح، وأمّا إنشاؤهم؛ فهو نفخ الأرواح في الأجساد الميتة الكاملة، وفي الأجساد البالية بعد إعادتها بجمع متفرِّقها أو بإنشاء أمثالها من ذواتها، مثل: عَجب الذَّنب، وهذا إبطال لاستبعادهم البعث بعد استقرار صور شبهتهم الباعثة على إنكار البعث[2].

وعُطِف بالواو؛ لأنَّه بمفرده تصوير لقدرة الله تعالى وحكمته بعدما أفاده قوله: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ من إثبات أنَّ الله قادر على

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 463.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 318.

البعث[1]، وقد اختيرت (الواو) دون (ثمَّ) أو (الفاء)؛ لتفيد الجمع دون ترتيب زمنيٍّ يوحي بتباطؤ، فإنَّ التَّهديد لا يُمنَح فيه مهلة تدعو إلى التَّدرُّج، بل يأتي التَّهديد مزدوجًا متوازيًا، فكلا الفعلين واقع في قدرتنا وفي إمكاننا دفعة واحدة.

نكتة استعمال مفردة (ننشئكم):

تـهـويـل المـصير المجهول والوعد بالعودةِ المبهمة

آثر البيان القرآني لفظ ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ذلك أنَّ لفظ (نعيدكم) يُشعر بالرَّجعة إلى حالٍ معلومة وتجربة مألوفة، وهي النَّشأة الأولى، أمّا لفظ (ننشئكم)؛ فيدلُّ على ابتداعٍ وإنشاءٍ من نوع آخر لا عهد لهم به، وهو ما صرَّح به بقوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: في هيئة أو خلق أو طورٍ مجهول مغاير لطبيعتكم الَّتي تعرفون، قال البقاعيُّ: "أي: إنشاءً جديدًا بعد تبديل ذواتكم ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإنَّ بعضهم تأكله السِّباع أو الحيتان أو الطُّيور، فتنشأ أبدانُها منه، وبعضهم يصير ترابًا، فربَّما نشأ منه نبات فأكلته الدَّواب، فنشأتْ منه أبدانها، وربَّما صار ترابه من معادن الأرض كالذَّهب والفِضَّة والحديد والحجر ونحو ذلك، وقد لمح إلى ذلك قوله تعالى: ﴿۞قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا﴾ [الإسراء: 50 - 51] إلى آخرها، أو يكون المعنى كما قال البغويُّ: نأتي بخلق مثلكم بدلًا منكم، ونخلقكم فيما لا تَعلَمونَ من الصّور، أي: بتغيير أوصافكم وصوركم في صور أخرى بالمسخ، ومن قدر على ذلك؛ قدر على الإعادة[2].

فجاء اختيار (ننشئكم)؛ ليفيد الابتداع لا الإعادة، وليثير في المخاطَبين قلقًا وغموضًا عن المصير، فهُم لا يعلمون ما سيكونون عليه، وهل يكون ذلك في أجساد أخرى، أم في عالم مختلف، أم بصفات

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 318.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 417.

مغايرة، وكلُّ ذلك يفتح عليهم باب الهلع من المجهول، فيكون أوقع في قلوب المكذِّبين بالبعث، وأبلغ في التَّهديد من مجرَّد (الإعادة).

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

غموضُ الظَّرفيَّة ترهيبٌ نفسيٌّ دافعٌ لاستدراك الغموض الإيمانيّ

الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ظرفية مجازيَّة معناها قوَّة الملابسة الشَّبيهة بإحاطة الظَّرف بالمظروف، كقوله: ﴿فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 7- 8][1]، وهذا يتناسب مع المعنى المقصود، وهو أنَّ النَّشأة الجديدة الَّتي يُهدَّدون بها ستكون في طور أو حال أو عالم أو هيئة مجهولة لهم، فهُم لا يُحيطون بها علمًا، ولا يدركون كنهها، فكأنَّهم سيقعون ضمن شيءٍ مبهمٍ محيط بهم من كلِّ جانب، أشبه بالولوج في تجربة وجوديَّة لا سبيلَ لهم إلى تصوُّرها، وهو ما يُثير في النَّفس رهبة وغموضًا؛ لأنَّ (الظَّرفيَّة) تعني أنَّ المخلوق يكون غارقًا ومحاطًا، وكأنَّ تلك النَّشأة الجديدة ستكون بيئة أو وعاءً يحتويهم، لا مجرَّد صفة طارئة عليهم.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالتها:

الاتِّساق في استعمال أدوات الإبهام والغموض أنسب في معاني النَّظم

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، موصولة وليست نكرة موصوفة أو شرطيَّة، ودلالتها هنا تفيد العموم في المجهول، أي: في الَّذي تجهلونه من الأطوار والهيئات والكيفيّات، فهي اسم موصول بمعنى: الَّذي، والتَّقدير: في الَّذي لا تعلمونه.

وتقع ما على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل، جاءت ﴿مَا﴾؛ لاستخدامها فيما يعقل وما لا يعقل، فجاء التَّعبير بها دون (الَّذي)؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ أعمُّ وأدلُّ على الغموض والإبهام، قال سيبويه: "و(مَن) وهي للمسألة عن الأناسيِّ، ويكون بها الجزاء للأناسيِّ و(ما) مثلها إلّا أنَّ (ما) مبهمة تقع على كلِّ شيء"[2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 318.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.

"و﴿مَا﴾ من قوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ صادقة على الكيفيَّة، أو الهيئة الَّتي يتكيَّف بها الإنشاء، أي: في كيفيَّة لا تعلمونها؛ إذ لم تحيطوا علمًا بخفايا الخلقة، وهذا الإجمال جامع لجميع الصّور الَّتي يفرضها الإمكان في بعث الأجساد لإيداع الأرواح"[1]، وقد جاءت هنا لتعزيز المعنى المراد من المقام، وهو تهويل النَّشأة الجديدة وتجهيل حقيقتها عن الخلق، حتَّى يشعر السّامع أنَّ تلك النَّشأة واقعة في حيِّزٍ مجهولٍ لا يعلم الإنسان له جهة ولا وصفًا.

نكتة استعمال أسلوب النَّفي في قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾:

النَّفي في تصوير المجهول أبلغ في النَّفس في مشهد النَّشأة الأخرى

آثر النَّظم الكريم استعمال أسلوب النَّفي في قوله تعالى: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بدلًا من الإثبات، فلم يقل: (في ما جهلتم)؛ وذلك ليحمل دلالة بلاغيَّة رفيعة، تتجلَّى في توكيد انقطاع علمهم كلّيًّا عن حقيقة تلك النَّشأة، وجعل المجهول عنهم أمرًا مطبقًا لا سبيل إلى تصوُّره أو إدراكه، وليس مجرَّد خفاء نسبيٍّ، ففي النَّفي بـ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ تنبيه إلى أنَّ الجهل هنا ليس طارئًا ولا عارضًا، بل هو جهل مستقرٌّ، مطلق، لا يُدرك الإنسان حقيقته بعقله ولا بخياله، ثمَّ إنَّ أسلوب النَّفي أدخل في باب الإبهام المرهِب والتَّجهيل المقلق، وفيه إشعار بأنَّ تلك النَّشأة الَّتي يُنشَؤون فيها ليست من مألوف تصوُّراتهم، ولا ممّا يدركه خيالهم، ولا ممّا شوهد له نظير في الدُّنيا، فيكون أدعى لبعث الخشية في قلوب المكذِّبين، وأشدَّ تأثيرًا في زعزعة غرورهم، وأبلغ تحريكًا لوجدانهم.

المخاطَبون لا يعلمون رسوخًا، ولا يعلمون حقائق المبهمات

غرض حذف المتعلَّق بالفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

إنَّ حذف المتعلَّق بالفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، جاء لتحقيق بلاغة الإبهام المقصود، وهو إبهام المفعول

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 318.

به، أي: لا تعلمون ماهيَّته، أو كنهه، أو حقيقته، أو وقته، أو كيفيَّته، وكلُّ تلك الاحتمالات مقصودة معًا على سبيل التَّوسُّع لا التَّضييق، فكان حذف المتعلَّق وسيلة لإشاعة الغموض والتَّهويل، وهذا الإبهام يسهم في تعميق أثر التَّهديد، فيجعل النُّفوس تتوجَّس من أمر مجهول لا قِبَلَ لها به ولا تصوُّرَ لمداه.

ومن لطيف ما يفيده الحذف هنا أنَّ الإنشاء الجديد الَّذي يُتوعَّدون به ليس فقط مجهولًا من حيث وقته أو مظهره، بل هو مجهول من كلِّ وجه؛ لأنَّ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تُفيد نفي العلم بأيِّ شيء عنه، ولو ذُكر المتعلَّق؛ لتحدَّد وجه الجهل، كأن يُقال: لا تعلمون هيئته أو زمنه، لكن بحذف المتعلَّق صار الجهل به تامًّا مطبقًا، وهذا أعون على إثارة الرَّهبة والوجل في صدور من يُخاطَبون، ولا سيَّما في معرض تهديد إنكاريٍّ بعد ذكر صنوف النَّكال في الآيات السّابقة.

كما أنَّ من أغراض حذف المتعلَّق تنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللّازم؛ لبيانِ أنَّهم في هذا المضمار لا يعلمون، فيكون نفي العلم وصفًا راسخًا فيهم، والنِّكات لا تتزاحم.

براعةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

الاستمرار في الجهل تحدٍّ صارخٌ إلى يوم الدّين

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جاء للدَّلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، فقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ لا يصف حالًا ماضويًّا محدودًا بل يُشيرُ إلى أنَّ جهلكم بما سينشئه الله في الآخرة أمرٌ قائم وممتدٌّ ومتجدِّد، فأنتم الآن لا تعلمون، ولن تعلموا ذلك إلّا حين وقوعه، ولا سبيل لكم إلى إدراكه في الدُّنيا، فنفي العلم مستمرٌّ متجدِّد، وفيه ردٌّ على أدعياء معرفة الغيب، فالفعل المضارع تحدٍّ صارخٌ مستمرٌّ يُنادي عليهم أن لن تعلموا، وهو ما يجعل التَّهديد مفتوحًا على مصير مجهول، يزيد القارئ أو السّامع حذرًا وارتقابًا؛

لأنَّ ما لا يُعلَم متوقَّع فيه كلُّ شيء، وهذا أبلغ في التَّخويف من معرفة الجزاء أو العذاب بعينه.

كما أنَّ المضارع ينسجم بلاغيًّا مع المقابلة المقصودة في آخر الآية نفسها: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، فالمضارع في ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ جاء ليُقابل الماضي ﴿عَلِمۡتُمُ﴾، فكأنَّ المعنى: قد علمتم بأبصاركم ووقائعكم النَّشأة الأولى، أمّا الثّانية؛ فجهلكم بها تامٌّ وممتدٌّ كعلمكم في الأولى، فكيف تجحدونها، وهي في قدرة من أنشأ الأولى؟.

نوع الواو وبلاغتها في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

واو الاستئناف حُجَّة مباغتة وتوبيخ مضمَر وتلويح بالتَّكذيب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ للاستئناف، وبلاغتها في هذا الموضع دقيقة، تحمل نكتة بيانيَّة تتَّصل بسياق الإنكار والتَّقريع المتدرِّج الَّذي تنتهجه الآيات.

فهي تفيد الانتقال من تقرير قدرة الله على إنشاء النَّشأة الثّانية - الَّتي جهلها المنكرون، وكذَّبوا بها - إلى إقامة حُجَّة محسوسة عليهم، وهي علمهم اليقينيُّ بالنَّشأة الأولى، أي: علمهم بأنَّهم وُجدوا بعد أن لم يكونوا، وأنَّ الله خلقهم من نطفة، ثمَّ طوَّرهم، وهذا الانتقال في الخطاب جاء مفاجئًا ومباشرًا للتَّوكيد والاحتجاج، والتَّلويح بالتَّكذيب.

دلالة التَّوكيد باللّام و(قد):

توكيد الحُجَّة ونقض المكابرة دفعٌ للإنكارِ وتحقيرٌ للتَّكذيب

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي لام القسم، وهي تفيد التَّوكيد، وتدلُّ على أنَّ ما بعدها مُؤكَّد قسمًا، وأمّا (قد)؛ فهي أيضًا حرف تحقيق إذا دخلت على الفعل الماضي[1]، وتفيد أنَّ الفعل قد وقع، وثبت، فيكون التَّركيب كلُّهُ - ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ﴾ - مشحونًا بتوكيدين متعاقبين بالقسم (اللّام) والتَّحقيق بـ (قد).

وبهذا التَّعبير المكثَّف، يُقرِّر الله ﷻ علم المخاطَبين المؤكَّد

(1) الصّافي، إعراب القرآن: 27/ 123.

بالنَّشأة الأولى، ويجعله برهانًا قطعيًّا على إمكان النَّشأة الثّانية، بل حُجَّة عقليَّة عليهم إن هم أنكروها؛ إذ مَن عَلِم النَّشأة الأولى، وجرَّب أطوار خلقه، لا يسعه إنكار النَّشأة الثّانية إلّا جحودًا أو غفلة.

براعة الطِّباق بين نفي العلم وإثباته:

بناء الحُجَّة المجادل بها بالحُجَّة المتَّفق عليها بطباقٍ محكم

في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ براعة بيانيَّة بليغة تتجلَّى في الطِّباق الأسلوبيِّ بين نفي العلم في قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإثباته في قوله: ﴿عَلِمْتُمُ﴾، فمن جهة، عبَّر القرآن عن النَّشأة الثّانية بكونها فيما لا يعلمون، إشارة إلى أنَّها تختلف عن النَّشأة الأولى من حيث الهيئة أو الطَّبيعة أو العالم الَّذي تُنشَأ فيه النُّفوس، "فالعلم المنفيُّ في قوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو العلم التَّفصيليُّ، والعلم المثبت في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هو العلم الإجماليُّ، والإجماليُّ كافٍ في الدَّلالة على التَّفصيليِّ؛ إذ لا أثر للتَّفصيل في الاعتقاد"[1].

ومن جهة أخرى، جاء إثبات العلم بالنَّشأة الأولى؛ ليكون مقدِّمة منطقيَّة، وبُرهانًا عقليًّا على إمكان النَّشأة الأخرى؛ إذ إنَّ الَّذي خلقكم أوَّل مرَّة على غير مثال سابق، قادر على أن يعيد خلقكم كيف شاء، في صورة لا تعلمونها، وهنا تتجلَّى روعة الطِّباق، فكما كنتم تعلمون النَّشأة الأولى علمًا يقينيًّا حسّيًّا، فإنَّ النَّشأة الأخرى ستقعون فيها، ولكن في طور لا تعلمونه الآن.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿عَلِمْتُمُ﴾:

الفعل الماضي يُقيم البرهان على حضور العلم في الأذهان تحقُّقًا لا يقبل الانزياح

التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، يحمل دلالة بيانيَّة دقيقة مقصودة، فهي لتحقيق الوقوع وثبوته؛ لأنَّ الماضي يدلُّ على أمر مضى، وانقضى، وثبت علم المخاطَبين به، ممّا يُقرِّب الحُجَّة، ويقطع المعذرة، ويجعل العلم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 319.

بالنَّشأة الأولى علمًا حاصلًا غير قابل للجدل أو الإنكار، بخلاف المضارع الَّذي قد يحتمل الاستمرار أو التَّجدُّد، ولتقوية الحضِّ على التَّذكُّر في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، فالتَّعبير بالماضي يُراد به تثبيت الحُجَّة وتوبيخهم على قسوة قلوبهم وعدم استثمارهم لعلمهم السّابق في الوصول إلى التَّصديق بالبعث والنَّشأة الآخرة.

بلاغة الخبر في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾:

الخبر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ليس لمجرَّد الإعلام، بل ليلزمهم بما لا يمكنهم إنكاره؛ إذ هم عالمون بحقيقة خلقهم الأوَّل، فقد نشؤوا من نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة، ومرّوا بمراحل الخلق حتَّى صاروا بشرًا سويًّا، فكيف ينكرون نشأة يعيدهم الله فيها، وهم قد علموا النَّشأة الأولى، وعاشوها؟ هذا الخبر يجيء في مقام التَّقرير؛ ليؤسِّس عليه الإنكار المتضمِّن في قوله بعد ذلك: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ففيه براعة في عرض المفارقة بين حالهم، وما كان ينبغي لهم أن يسلكوه من طريق التَّذكُّر والاستدلال بما علموه، لا الإصرار على التَّكذيب، فهو خبر ظاهره تقريريٌّ وباطنه إنكاريٌّ توبيخيٌّ، يفضح تناقض موقفهم، ويثبت أنَّ إنكارهم للبعث ليس عن جهل، وإنَّما عن إعراض وعناد.

إنكارُ البعث ليس عن جهلٍ بالمعارف بل عناد بليد

نكتة التَّعبير بالنَّشأة دون الخلقة:

التَّعبير بمفردة ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بدلًا من (الخلقة)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ينطوي على دقَّة بلاغيَّة وعمق بيانيٍّ، فإنَّ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ تفيد ابتداء الوجود من العدم وتربيته، فهي تتضمَّن معنى الحدوث والانبعاث بعد عدم، ومن ثمَّ القيام على تربيته[1]، بخلاف (الخلقة) الَّتي قد تنصرف إلى مجرَّد التَّصوير أو التَّقدير أو الهيئة دون أن تشير إلى ابتداء وجود الشَّيء أو تربيته، فاستعمال

بلاغة اختيار لفظ (النَّشأة) في إثبات البعث بين الدَّلالة على الابتداء وحُجّيَّة الإلزام

(1) الراغب، المفردات، ص: 807.

﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ في هذا السّياق يلائم غرض الآية في إثبات إمكان النَّشأة الثّانية؛ لأنَّ الخطاب موجَّه إلى منكري البعث، فجيء بـ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾؛ ليربط بين النَّشأتين، الأولى الَّتي علموها، وتحقَّق وقوعها فيهم، والثّانية الَّتي ينكرونها، فالآية احتجاج عليهم بما علموا من أمر النَّشأة الأولى؛ ليلزمهم الإقرار بالثّانية، ولهذا كان التَّعبير بـ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ أبلغ من (الخلق)؛ إذ فيها دلالة على ابتداء الحياة وتمام الخلق بعد أن لم يكونوا شيئًا، فهي تتناول أطوارًا متعدِّدة تشهدها النَّفس البشريَّة، وتدرك من خلالها حقيقة القدرة الإلهيَّة، ممّا يجعل إنكارهم للنَّشأة الآخرة بعد ذلك ضربًا من المكابرة المفضوحة.

توجيه القراءات القرآنيَّة:

تنوُّع القراءات يُثري المعنى، ويُنبِّه على قوَّة الدَّلالة المقصودة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، قرأ الجمهور ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ بسكون الشّين تليها همزة مفتوحة مصدر نَشَأ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بفتح الشّين بعدها ألف تليها همزة ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾[1]، فقراءة الجمهور: ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾، على وزن (فَعلَة)، وهي مصدر دالٌّ على الحدوث والتَّكوين، وتفيد معنى الابتداء والنُّمو والارتقاء في الخلق، والقراءة الثّانية ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾ على وزن (فَعالَة)، قال الفرّاء: "وهي مثل الرَّأفة والرَّآفة على الصَّواب"[2].

والقراءتان متقاربتان في المعنى، وهما من مصادر الفعل (نشأ)، لكنَّ قراءة الجمهور بـ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ أقرب دلالة على الهيئة المتكاملة للنُّمو الأوَّل، وهي الأنسب لسياق الآية الَّذي يُحتجُّ فيه على المكذِّبين بالبعث بأنَّهم قد علموا النَّشأة الأولى بكلِّ أطوارها منذ العدم حتَّى التَّمام، فهي شهادة قائمة في النَّفس والحسِّ، أمّا قراءة ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾؛ فهي تُثري النَّصَّ من جهة تنوُّع الأساليب القرآنيَّة ومراعاته لتعدُّد الألسنة.

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 343.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 315، والكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 319.

غرض وصف النَّشأة بالأولى دون السّابقة:

في لفظ الأولى تلويح بالأخرى، وهي البعث وتجاوز بالزَّمن إلى أوَّليَّة النَّشأة

إنَّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ دون أن يُقال: (النَّشأة السّابقة)، جاء على نحوٍ بالغ الدِّقَّة في البيان القرآنيِّ، وذلك أنَّ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ تدلُّ على أنَّهم لم يكونوا شيئًا قبلها[1]، وعلى ترتيب في الوجود والزَّمن، وتُشعر بوجود نشأة ثانية من جنسها ستأتي بعدها، فهي كلمة تأسيسيَّة تمهِّد لذكر النَّشأة التّالية[2]، وتُهيِّئ الذِّهن لها، وتجعلها ضرورة منطقيَّة بعد إثبات الأولى، أمّا لفظ (السّابقة)؛ فله طابع إخباريٌّ يُشير إلى زمن مضى دون أن يُفهَم منه بالضَّرورة أنَّ هناك تالية تُنتَظر، أو يُحتجُّ بها، فـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ أوقع في موضع التَّحدّي؛ لأنَّها تفتح الباب للمقابلة العقليَّة الَّتي تجعل البعث والنَّشأة الأخرى أمرًا غير مُستغرب، ما دامت ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ قائمة محسوسة قد شهدها الإنسان، وعلم أطوارها، وفي ذلك ترقٍّ بلاغيٌّ يجعل من إقرار المخاطَب بـ﴿ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ مقدِّمة لإلزامه بالإيمان بإمكانيَّة (النَّشأة الآخرة)، على نحو ما ينسجه أسلوب القرآن في إحكام الحُجَّة وتقرير العقيدة من باب المحسوس إلى الغيب، كما أنَّ اختيار ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ تلويح بالأخرى، وهي البعث.

نوع الفاء ودلالتها:

التَّفريع الإرشاديُّ على الأصل الحجاجيّ منهج القرآن في تثبيت الحقائق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هي فاء تفريع، وهي تفيد التَّسبُّب، أي: إنَّها تربط ما بعدها بما قبلها ربط النَّتيجة بالمقدِّمة، وقد جاء قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، وهي حقيقة مقرَّرة لا مجال لإنكارها؛ لأنَّها واقع مشهود، فاقتضى بعد ثبوتها أن يتفرَّع عليها التَّذكُّر والاعتبار بها، فجاء التَّوبيخ بـ﴿فَلَوۡلَا﴾، الَّتي تُفيد الحضَّ على التَّذكُّر مع التَّوبيخ على تركه، بعد توافر سببه.

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 644.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 419.

ودلالة الفاء هنا تزيد في المعنى التَّقريريِّ؛ لأنَّها تُبرز اللَّوم على ترك التَّذكُّر الَّذي كان ينبغي أن يكون لازمًا بعد العلم، فمجيء الفاء دلَّ على أنَّ عدم تذكُّرهم بعد علمهم هو أمر مستغرب غير سائغ في ميزان العقل والنَّظر، فصارت الفاء هنا محمَّلة بمعنى التَّلازم العقليِّ واللُّزوم الحجاجيِّ، لتُقيمَ الحُجَّة في صورة توبيخ مؤلم من جهة، وتحريض هادٍ من جهة أخرى.

غرض استعمال أداة (لولا):

من لم يُرشده عقله إلى الإيمان؛ فحقُّه أن يُرمى بسهام التَّوبيخ ورماح التَّقريع

أداة (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاءت لمعنى التَّحضيض والتَّوبيخ، وهي بمعناها البلاغيِّ ليست شرطيَّة محضة، بل أُخرجت عن أصلها (الامتناع لوجود المانع) إلى باب الحثِّ والتَّنبيه، فهي تُفيد توبيخًا مُضمَّنًا بحضٍّ على الفعل؛ إذ السّياق يفيد أنَّ العلم بالنَّشأة الأولى كان يجب أن يُنتج تذكُّرًا واستدلالًا على النَّشأة الثّانية، فلمّا لم يقع ذلك؛ جاء الاستفهام التَّوبيخيُّ على صورة تحضيض: فلَولا تَذَكَّرونَ؟ أي: هلّا تذكَّرتم وقد علمتم؟.

وفي هذا التَّعبير شيء من اللَّوم المُغلَّف بالدَّعوة إلى التَّعقُّل، كأنَّما يُقال لهم: إنَّكم لا تجهلون أصل خلقكم، وقد شاهدتم النَّشأة الأولى بأعينكم، فهلّا استعملتم هذا العلم في موضعه؟ أليس هذا كافيًا لتذكُّر البعث والنَّشأة الآخرة؟.

بلاغة استعمال ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ دون (تتفكَّرون):

مناسبةُ لفظِ التَّذكُّر في إعمال العقل فيما هو معلومٌ متقرِّر عند المخاطَبين

آثر النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ استعمال الفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بدلًا من (تتفكَّرون)، وذلك أنَّ التَّفكُّر هو إعمال العقل في طلب معرفة مجهولة، وتصرُّف القلب بالنَّظر في الدَّلائل[1]، أمّا التَّذكُّر؛ فهو استحضار معلوم سابق، ولمّا كانتِ النَّشأة

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75.

الأولى معلومةً مشهودة لهم، وقد علموها من واقع خلقهم وولادتهم ونموِّهم؛ لم يكن المقام مقام بحثٍ أو تأمُّلٍ في أمر غائب، بل هو مقام استدعاء ما قد عُلِم، وتُيقِّن، فجاء التَّعبير بـ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ توبيخًا على ترك ما هو حاضر في أذهانهم، معلومٌ لهم، لا يحتاج إلى نظر جديد، وهو أبلغ في الحُجَّة، وأشدُّ في الإلزام.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

استحضار دائم للحُجَّة وتوبيخ لا ينقطع

التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاء لبثِّ الحيويَّة في الخطاب، وتجديد الدَّعوة للتَّذكُّر على وجهٍ مستمرٍّ غير منقطع، والمعنى: ما يمنعكم الآن، وفي كلِّ حين أن تستحضروا ما علمتموه، وشهدتموه من النَّشأة الأولى؟.

فأفاد المضارع الاستمرار والتَّجدُّد، وكأنَّه لوم دائم متجدِّد على ترك التَّذكُّر، لا يُرفع عنهم؛ إذ لا عذر لهم، وهم يشهدون آثار الخلق الأولى في أنفسهم، ويعلمونها علمًا لا يجهلونه، كما أنَّه أفاد التَّنبيه على أنَّ باب التَّذكُّر مفتوح، فإن فاتهم التَّذكُّر فيما مضى؛ فليتداركوه الآن[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّبق والغلبة:

السَّبق أعمُّ دلالة وأسبق وقوعًا من الغلبة الَّتي تعني تفوُّق طرفٍ على آخر

السَّبق: من مادَّة (سبق)، وهي تدلُّ على التَّقدُّم على الآخر زمانًا أو قدرةً أو فعلًا، وهو يدلُّ على أنَّ أحدًا يتقدَّم على غيره في الوصول إلى أمرٍ ما أو إنجازه[2]، وفي السّياق القرآنيِّ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا يُسبقنا أحدٌ إلى شيء نريد فعله، ولا يعجزنا أحد عن تحقيق ما نقدِّره، أو نريده، سواء أكان ذلك في الإحياء أم في الإماتة أم في البعث.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 319.

(2) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سبق).

وأمّا الغَلَبَة؛ فهي من مادَّة (غلب)، وهي تدلُّ على التَّفوُّق بعد منازعة، أي: مغالبة ومقاومة ثمَّ قهر[1]، والغلبة تشير إلى أنَّ طرفًا قاوَم أو نازع أو تحدَّى، فغُلِب، فهي تفترض وجود قوَّة مضادَّة، أو خصم ظاهر، وهي تعني الانتصار في صراع، لا مجرَّد التَّقدُّم.

فاختار القرآن نفيَ السَّبق في هذا الموضع ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، ولم يقل: "وما نحنُ بمغلوبين"؛ لكون المقام مقام قدرة إلهيَّة مطلقة، لا تقع تحت مغالبة أو نزاع، فاللهُ لا يُدركه سابقٌ، ولا يُعجزه لاحقٌ، ولا يُعطِّله مانعٌ، بينما (الغلبة) توحي بخصمٍ يعارض، وهذا غير لائق في مقام الألوهيَّة، فالسَّبق: نفيٌ لقدرة أحدٍ على التَّقدُّم أو اللَّحاق بقدرة الله. والغَلَبَة: نفيٌ لمغالبة أو خصومةٍ تؤدّي إلى هزيمة، فـ(السَّبق) أوسعُ دلالةً، وأليق بمقام القدرة الرَّبّانيَّة الخالصة، ولهذا اختير في هذا الموضع؛ للدلالة على أنَّ الله منفرد بالفعل بلا تحدٍّ ولا مقاومةٍ، وبلا إمكان إدراكٍ أو تجاوز.

النَّشأة والخلقة:

الخلقةُ مأخوذة من الجذر (خلق)، وهي تدلُّ في أصل معناها على إبراز الشَّيء من العدم إلى الوجود على هيئة مخصوصة، فـ(الخَلقُ) أصله: التَّقدير المستقيم، ويُستعمَل في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117][2]، وهي تشمل الهيئة والصّورة والتَّقدير، فالخِلقة تُشير إلى البنية الظّاهرة والهيئة الخارجيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: 6]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]، فهي أقرب إلى وصف البنية الجسديَّة وشكل التَّكوين الأوَّل.

الخِلقة أصل الإبداع التَّكوينيّ والنَّشأة إعادته

(1) الخليل، العين، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (غلب).
(2) الراغب، المفردات: (خلق).

وأمّا النَّشأةُ؛ فهي من الجذر (نشأ)، وتدلُّ على الظُّهور والنُّموِّ والتَّطوُّر التَّدريجيِّ من طور إلى طور، النَّشءُ والنَّشأةُ: إحداثُ الشيءِ وتربيتُهُ[1]، فالنَّشأة ليست مجرَّد خلق، بل ابتداءٌ مع تطوُّر وتكمُّل[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أنتم تعلمون أنَّ خلقكم قد مرَّ بأطوار متدرِّجة: نطفة، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ عظامًا، ثمَّ لحمًا... فلو تأمَّلتم في هذه النَّشأة؛ لما استبعدتم النَّشأة الأخرى، وكذلك قوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه دلالة على تحوُّل جديد وتكوينٍ لا تعلمونه من قبل، أي: في صورةٍ أو طورٍ أو هيئة لم تألفوها، وهو إشارة إلى البعث أو الخلق الآخر في الآخرة.

التَّذكُّرُ والتَّفكُّر:

التَّذكُّرُ في اللُّغة مأخوذ من الجذر (ذكر)، ذكرت الشَّيء، خلاف نسيته، ثمَّ حمل عليه الذِّكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذُكْر، بضمِّ الذّال، أي: لا تنسه[3]، وهو يدلُّ على استحضار شيء قد عُلِمَ سابقًا، سواء كان ذلك من تجربة، أو سماع، أو إدراكٍ سابق، والذِّكرُ كذلك: الحفظ للشَّيء تذكُّره، وجري الشَّيء على لسانك، تقول: جرى منه ذِكر[4]، فهو عودةٌ إلى معلومة مودعة في الذِّهن، قد حجبتها الغفلة، أو أنساها الانشغال، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: إنَّكم تعرفون أنَّكم خُلِقتم من نطفة، وترون ذلك واقعًا، فلم لا تستحضرون هذا اليقين عند الحديث عن النَّشأة الثّانية (البعث)؟ فالتَّذكُّر هنا يعني: الاستدعاء القلبيَّ لما هو معلوم سلفًا، والاعتبار

التَّذكُّر إعمال العقل فيما هو معلوم، والتَّفكُّرُ إعمال العقل للوصول إلى مجهول

(1) الراغب، المفردات: (نشأ).
(2) ابن سيده، المُحكم: (نشأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(4) الخليل، العين: (ذكر).

به، فالتَّذكُّر يتعلَّق باستحضار حقائق معلومة ومعاينة آثارها؛ ليترتَّب عليها التَّسليم للحقِّ والإيمان به.

وأمّا التَّفَكُّرُ؛ فهو من الجذر (فكر)، ويعني: إعمال العقل بالنَّظر والتَّأمُّل في شيء لا يُدرَك إلّا بالتَّدبُّر، وقد يكون جديدًا على الذِّهن، أو يحتاج إلى تحليل وقياس، أو محاولة استنتاج، وعليه فالتَّفكُّر نشاطٌ عقليٌّ تأمُّليٌّ يبحث عن المجهول، ويُرجى به الوصول إلى معرفة جديدة، لكنَّ في قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، جاء من معنى آخر للتَّفكُّه، وهو التَّلهّي بالكلام عن الشَّيء الغريب أو المثير للدَّهشة، فهو أقرب إلى التَّندُّر أو التَّأسُّف أو الاستغراب؛ لذلك فموضع (التَّذكُّر) ورد في مقام الحُجَّة العقليَّة؛ إذ المطلوب أن تسترجع ما تعلمه من الخلق الأوَّل لتُسلِّم بالبعث، أمّا (التَّفكُّه)؛ فورد في مقام الفقد الحسّيِّ (تحطيم الزَّرع)، وهو تعبيرٌ عن الاندهاش السَّلبيِّ والجزع، لا عن التَّعقُّل أو التَّدبُّر.

فالتَّذكُّر: فعلٌ قلبيٌّ ناتج عن يقين سابق، يُسترجَع للتَّنبيه والاعتبار، والتَّفكُّر: فعلٌ عقليٌّ استكشافيٌّ، يُبذَل للوصول إلى معنى أو حكمة غير ظاهرة، وفي الآية: جاء التَّذكُّر في مقام حُجَّةٍ على البعث، وجاء التَّفكُّه في تصوير ردِّ فعل الإنسان عند فقد نعمة الدُّنيا دون نظرٍ أو تعقُّل، وبهذا تتجلّى بلاغة القرآن، في توظيف كلِّ لفظ بحسب مقامه، بحيث لا يُغني أحدهما عن الآخر، ولا يقوم مقامه في المعنى المقصود.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"